ليلة عيد الميلاد(*)

د. حسن فتح الباب

- ١ -

نوافذُ عينيْكِ في الحلمِ ،
قاطرةُ الوقت، طيفُ قريني يُساورني،(**)
تعزفُ الرِّيحُ للفجرِ بين حنايا الصَّبايا المرايا،
خِفافاً على عرباتِ الإيابِ من الشرفاتِ
على النِّيلِ ، تحت الفنادقِ يشهق ظمآنَ،
يزفر وجداً إلى سُرُرِ الحبِّ
كانت تموجُ على الطُّنُفِ المخمليِّ النَّوافيرُ(***)
تشدو العصافيرُ باللّذّة المشرئبَّةِ
بين الحرائقِ والطلِّ، أرصفة الرُّعبِ
أقنعة الظِّلِّ للصبيةِ الشاردين
تُدَفِّئُ أعضاؤهم بعضها
يضاجع ريش الطيور الصَّغيرةِ أشلاءها
على عرباتِ الهزيع الذي قد تبقَّى
من الويلِ واللَّيلِ ،
وشوشة النَّار، خشخشة العشبِ،
حشرجة الشَّمعِ والدَّمعِ
ينكسر المنحنى، يُجهِش الصَّمتُ
إنَّ الرِّياحَ تنازعني عريها.. جوعها.. جرحها
الصَّبايا المنايا المرايا تطلّ بأثدائها
أعتلي سادراً وهْجها.. ثلجها
والطُّيور المَهيضة تحمل أغلالها

- ٢ -

تراودني للعشاءِ الأخير
تقولُ الرِّياح اللواقح: هيِّئْ لنا المجتَنَى
ليَ الوصلُ والفصلُ، ليَ البدءُ والمنتَهَى
تقولُ الخُطَى العائداتُ: تعال
أنا حبُّك المُشْتَهَى، أنا لك
فأَجْفَلُ، تُسلمني للعراءِ الطُّيورُ الصَّغيرةُ،
أَرْتَدُّ ظِلاًّ لأشلائها
وتولد لي في الضحى نجمةٌ جانحهْ
أنا البَشَرِيُّ العقيم
ويحرسني الرَّعْدُ ما بين صبَّارةٍ
وقُبّرَةٍ نائحهْ
تُطَارِدُني ذكرياتُ العشاءِ الأخير

- ٣ -

لماذا أَرانيَ في الحُلمِ مُسْتخفيا
وراءَ نوافذِ عينيك، قاطرة الوقتِ،
أشرعة الموت، أقنعة الشَّبَحِ المستخفِّ
بأَوْجاعيَ النَّازِفَهْ؟
لماذا أراني مازلتُ مستوحشا
طللاً عانياً عاريَ القدَمَيْنْ؟
ويشهقُ بي النِّيل، يزفر ناي الطُّيورِ الصَّغيرةِ
تَدمى بأشواقِها الجامحه
وتقتات أشواكُها الجارحه
مناقيرَها الرَّاعفه
هو الصِّلُّ ينداحُ؟ حدباءُ محمولةٌ؟
تراها سمادير قبوِ الجنون؟
تراه خطَى التَّتَرِيِّ اللَّعين؟
لماذا يؤرِّقني المتعَبون
وقد فاضت الكأسُ، غاضت عيون
وحان عشائي الأخير؟

القاهرة - يناير ١٩٩٣

(*) وزن القصيدة مزيج من بَحْرَيِ المتقارب والمتدارك.

(**) القرين: الأنا الخفيّ مصاحب المرء وعشيره، وفي الأسطورة العربيّة أنّ لكلِّ امرئ قريناً.

(***) الطنف: ما أشرف خارجاً عن البناء.